الفصل السابع :

مكانة النبي ﷺ عند الله عز وجل

هل نصَّب النبي ﷺ نفسه فوق موسى وعيسى؟

إن هذا المقال يعني عند أول وهلة طعناً في رسالة النبي ﷺ لأنه يناقض مفهوم النبوة والرسالة ، فالنبوة ليست ترشيحاً برلمانياً ولا انتخاباً رئاسياً ولا ملكاً وراثياً ، إن النبوة والرسالة اختيار واصطفاء من الخالق العليم لبعض من خلقه كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج٧٥] .

لقد اصطفى الله سبحانه وتعالى من الناس أنبياء ومن الأنبياء رسلاً ومن الرسل أولي العزم وهم خمسة منهم : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ﷺ أجمعين- وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب٧] ثم اختار الله منهم محمداً ﷺ ليكون أفضلهم ، هذا التفضيل الذي ليس فيه انتقاص من أحد أو ترفع عليه ، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك إخبار المتواضعين فقال « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ولم يسعه إلا الإخبار امتثالاً لأمره تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى١١] فحدث بنعم الله اعترافاً بفضله وإظهاراً لكرمه وقد أنزل عليه ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء٧٩] .

فلا يجوز له أن يكتم علماً أو يستر فضلاً آتاه الله إياه ، وهل من سبيل لمعرفته إن كتمه النبي ﷺ ؟وإذا كان بيان العلم وتبليغه أمراً قد أوجبه الله على العلماء ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران ١٨٧] فهو في حق الأنبياء

أوجب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة٦٧] فالذي بلغ عتاب ربه له في قوله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال٦٧] ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة٤٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم١] ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾ [عبس ١، ٢].

وكان أشده عليه آية الأحزاب ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب٣٧].

قالت عائشة رضي الله عنها : « لو كان النبيﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية » أيبلغ النبي ﷺ ذلك كله ولا يبلغ ما أنعم الله عليه؛ ثم ننظر كيف أبلغ وكيف كان يعامل الآخرين ، إن البشرية لم ولن تعرف عظيماً في تواضع كما كان النبي ﷺ ، لقد نهى أتباعه أن يفاضلوا بين الأنبياء على وجه يشعر بالتنقيص من شأن واحد منهم ، ففي صحيح مسلم عن النبيﷺ أنه قال : « إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » رواه مسلم .

فالله تعالى نهى أن يفخر أحد على عامة المؤمنين ، فكيف على نبي كريم؟ وقد قال النبيﷺ « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » رواه أحمد والبخاري ومسلم .

وحذرهم من الغلو في كل شيء لا سيما في حبه ، روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وجاءه رجل ذات يوم وقد ظهر على وجهه علامات الخوف والهيبة فقال له : « هوِّن على نفسك أنا لست ملكاً ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » .

إن أنبياء الله جميعاً متساوون في الحرمة فالكفر بأحدهم كفر بجميعهم وانتقاص واحد منهم مُخرِج من الإسلام وشعار المسلم تجاههم ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة٢٨٥]

هل يعلم الناقمون على الإسلام أنه هو الذي دافع عن الأنبياء وكشف زيف المتنقصين وادعاءات الكاذبين فكشف اللثام وأزال الأوهام وأبان الحق وذكر الصدق وألزم أتباعه طريق التوسط والاعتدال لا إفراط ولا تفريط ، فدافع عن موسى ضد افتراءات بعض أتباعه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب٦٩] ونزه المسيح عن تمكُّن أعدائه منه وصَلْبه وقَتْله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء١٥٧] ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء١٥٨] .

إن النبي ﷺ الذي أخبره ربه عن شرف مكانته وسمو منزلته هو الذي أنزل عليه آيات بينات أخبرته أيضاً عن مكانة غيره من الأنبياء عليهم السلام فنزل عليه في شأن نوح ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات٧٥] ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء٣] وفي شأن إبراهيم ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة ١٢٤] ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل١٢٠] ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم٣٧] ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء١٢٥] وفي شأن موسى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم٥١ ، ٥٢] وقال فيه : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف١٤٤]

﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب٦٩] وفي شأن عيسى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء١٧١] ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم٣١] ﴿ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران٤٥] .

إن حياة النبي ﷺ كلها دليل على تواضعه وعدم ترفُّعه على أحد من الناس ، قال الله فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم٤] وقال عن رسالته « إنما بُعثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق » وقال : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أي في طلبه من ربه كيفية إحياء الموتى ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة ٢٦٠] فنفى ﷺ أن يكون إبراهيم قد سأل شاكاً ، ولتأكيد هذا النفي عنه نسبه لنفسه افتراضاً لوقوعه .

وقال ﷺ « أكون أول من يُبعث فأجد موسى آخذاً بقائمة من قوائم العرش فلاأدري أبُعِثَ قبلي أم جُوزِي بصعقة الطور » رواه البخاري ومسلم . وقال ﷺ عندما عومل بجفاء شديد من أحد الرجال : « رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر

من هذا فصبر » صحيح الجامع . وقال ﷺ : « لو جاءني داعي يوسف لأجبته » أي عندما جاءه رسول الملك يكلمه في شأن خروجه من السجن ، وقال النبي ﷺ : « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم » .

كيف يترفع النبي ﷺ على أنبياء الله ولم يترفع على مسكين أو فقير ، بل كيف يتسرب الكبر إلى نفسه وقد قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » رواه مسلم .

وهذه حياته وسيرته شاهدة على عظيم خلقه ، كان فراشه من أدم حشوه ليف ، لم يشبع في حياته من خبز ولحم إلا مع ضيوفه ، كان يبيت هو وأهله الليالي طاوياً لايجد طعاماً ، كان يمر الهلال والهلال وما يوقد في بيته نار إنما طعامه وأهل بيته الأسودان ـ التمر والماء- قالت له زوجه عائشة رضي الله عنها ذات يوم ألا تأكل متكئاً ؟ فقال : « بل آكل كما يأكل العبد » وكان يبدأ من لقيه بالسلام ولو كان طفلاً ، كانت الأَمَة من إماء الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ وتنطلق به حيث شاءت فيمشي معها لقضاء حاجتها ، وكانت الجواري يأتين بالماء البارد في الشتاء ليضع يده فيه تبركاً به فما يرد أحداً ، ولم يكن أحد أحب إلى قلوب أصحابه منه ، وما كانوا يقفون له لعلمهم أنه يكره ذلك ، ولما دخل مكة فاتحاً منتصراً دخلها محنياً جبهته وإن كادت لتمس ظهر راحلته تواضعاً لله رب العالمين في يوم الفتح والنصر العظيم قائلاً : « لا إله إلا الله وحده أنجز وعده وأعزَّ جنده وهزم الأحزاب وحده » .

هذه لمحات عابرة من حياته وأقواله في عظمته وتواضعه ، فأين منصفو التاريخ والمتكلمون بالحق إن كانوا يريدون صواباً أو يفتحوا للحوار باباً لا تزويراً أو سُباباً ؟